

الكلام البليغ ودراسته

أصبح من المقرر عند الأدباء الآن: أن ليس الغرض من البلاغة^(١) سرور النفس وارتياحها بقراءة الشعر البليغ والكلام الممتع والنثر البديع، ليكون ذلك ضرباً من ضروب التسلى فحسب. لأن هذه المدنية الحديثة حملت الإنسان على الاهتمام بالمنافع والفوائد العقلية، كما جعلته مادياً بحثاً محباً لنفسه قبل كل شيء. ولذلك أصبحت جميع الفنون مبوغة بصبغة علمية أو اجتماعية، الغرض منها نشر الأفكار والآراء والمباحث الاجتماعية والعلمية فى قالب يسهل على النفس قبوله ويلذ للإنسان تذوقه، ويسحر الألباب فيؤثر فيها الأثر المطلوب. ولهذا أيضاً قل الاهتمام بالبلاغة الوجدانية التى لا تشتمل إلا على حركات النفوس والخيال وصور العواطف. واعتبروا البلاغة صورة للأفكار والعقول وشيئاً من الحياة العقلية والعلمية للأمم، وجزءاً كبيراً من تاريخ الإنسان. ورأى بعض كبار الأدباء أن البلاغة كالتاريخ من حيث الاستدلال بها على حياة الشعوب، غير أن التاريخ يدل على الحركة السياسية والبلاغة تدل على الحركة العقلية والاجتماعية. أو يدل التاريخ على حياة الإنسان العملية والبلاغة على حياته النفسية. من فكر وأخلاق وذكاء، وفضيلة ورذيلة، وعلم وجهل وغير ذلك. فجعلوا البلاغة من شعر ونثر وسيلة لدرس طبائع الإنسان ومعرفة نفوس الكتاب. وقصر بعض النقاد همهم على معرفة حقائق النفوس

(١) نريد بالبلاغة ما يطلق عليه الناس الآن اسم "أدب" وهو أثر العقول والأفكار الذى يظهر فى الشعر والنثر (راجع الفصل التالى).

من أثر الكتابات، وبني مذهبه في النقد على ذلك، واستخرج حالة الكاتب النفسية (بسيكولوجية) من كتاباته^(١).

وقالوا إن دراسة البلاغة هي التي نقلت التاريخ من ذكر الحوادث وسرد الوقائع إلى البحث في كل ما يعترى الإنسان، وإلى وصف أحواله النفسية والاجتماعية. فانتقل التاريخ بواسطة البلاغة من تاريخ جاف للحوادث إلى تاريخ المدنية الإنسانية. وقالوا إن البلاغة هي سبيل الوصول إلى معرفة أحوال الأمم في الأزمنة المختلفة، وكيف كانت تفكر وتشعر وتدرک. وذلك مما يساعد على إيضاح التاريخ ويسير به في طريق صحيح، ويبين روح القوانين ومذاهب الاجتماع ورقى الأمم وانحطاطها.

لذلك أصبحت دراسة البلاغة لدى الأمم الحديثة دراسة لكبار نفوسها وعقولها المفكرة، أو كما يقولون دراسة للتاريخ الطبيعي للنفوس الإنسانية. أو الغرض منها على حسب الاصطلاح العلمي (تشریح) النفوس والأفكار لمعرفة الصحيح من السقيم منها، والحصول على صورة عامة من الحياة العقلية للإنسان. قال سنت بوف: لم يبق لدى من السرور إلا هذا النوع من "تحليل" النفسى الذى يمكن إذ عرف به تاريخ العقول. وكل ما أريده من النقد الأدبى هو جعل البلاغة تاريخاً طبيعياً للنفوس. . إلى آخر ما قال. فلم تصبح دراسة البالغة قاصرة على الشعر والنثر الصناعى لا غير بدون نظر إلى صلة الكاتب أو الشاعر فيها. بل لابد من اعتبار كل ذلك. مع البحث عن الصلة بين الكاتب وبين الحالة الاجتماعية.

(١) كما فعل سنت بوف الناقد الفرنسى الشهير المتوفى سنة ١٨١٩.

ويخيل إلى من يريد أن يدرس بلاغة العرب أن هذه الطريقة لا تجد لها مجالاً فيها. لأننا إذا أحصيناها وجدنا أنها تكاد تكون منحصرة في نوع من الشعر الوجداني الشخصي. ونجد هذا الشعر الذي ظهر في الأمم الإسلامية المختلفة والبيئات المختلفة، حافظاً لشكل واحد، وأسلوب واحد، لا من جهة الصناعة لا غير. بل من جهة تصور المعاني وإدراكها أيضاً، وربما كان ذلك صحيحاً. ولكن لا يلزم مدرس البلاغة العربية أن يبالغ في ذلك، فقد نجد في بلاغة العرب ما نجده في غيرها من أنواع الشعر والنثر، ولكنه ليس ظاهراً فيها ظهوره في غيره لقلته ولاندماجه في الوجدانيات. فكأنه إذا جاء فإنما يجيء عفواً مع ندورته المعروفة. ولذلك لا يصح أن يعد من أصول البلاغة العربية، ولا من طبيعة هذا اللسان المبين.

على أنه من الممكن أن توجد هذه الطرق الحديثة في دراسة بلاغة العرب من جهة صلتها بالتاريخ والاجتماع صلة صحيحة، ودراسة نفوس الكتاب والشعراء من أقوالهم بقدر ما تسمح به طبيعة هذه البلاغة وأصولها الفنية. غير أن ذلك لا يتسنى الآن. ولا يمكن أن تثبت هذه الطريقة إلا بعد أن يكثّر البحث على هذا النحو، يوجد بين المدرسين والنقاد علماء في الفلسفة والاجتماع تكون لهم طرق واضحة ومذاهب مبنية على لقاعدة فلسفية أو طريقة اجتماعية علمية.

ولأجل أن تدرس البلاغة العربية بهذه الطرق المفيدة، لابد من مزج التاريخ الإسلامى بها. إذ لو كان من الضروري الاستدلال على أطوار البلاغة بدراسة التاريخ، فذلك ألزم ما يكون في بلاغة العرب، لأنها أشد ما تكون صلة بالتاريخ. إذ التاريخ الإسلامى من أكثر توارىخ الأمم وأشدّها حركة

وانتقالاً، وأظهرها أثراً في العقول والأفكار. لأنه ليس تاريخاً سياسياً لا غير، بل هو أيضاً تاريخ ديني، أى تاريخ مذاهب وأحزاب دينية، وآراء في السياسة والاجتماع مبنية على أثر الدين في العقول والعقائد . . . ولو كان كل المسلمين الذين ملأوا الأرض شرقاً وغرباً، ودوخوا العالم حيناً من الدهر من أصل عربى، لغتهم العربية الصحيحة، لكانت تصوراتهم وإدراكاتهم عربية، لظهرت مدنية الإسلام ظهوراً تاماً في بلاغة العرب ظهور مدنيات الأمم الأخرى بلغاتهم. ولكن تغلب الأعاجم على الدولة محاً منها كثيراً من الصبغة العربية وجعلها مدنية إسلامية مختلطة. فلم تجد اللغة العربية من سعة المجال ما كان يكون لها لو أن الدولة كانت عربية صرفة. فمعنى مزج التاريخ بالبلاغة دراسة الاجتماع في زمن من الأزمان، ودراسة الحالة العقلية، أى معرفة الزمن بواسطة البحث عن كبار المفكرين والعلماء وآثاروا آرائهم في المجتمع. أو بعبارة أخصر دراسة التاريخ الاجتماعية والحركة العقلية دراسة علمية تاريخية، بقطع النظر عن كل شئ سوى البحث عن الحقيقة، مع الابتعاد عن جميع الميول والأهواء والمذاهب الشخصية بقدر الإمكان، ثم البحث عن ذلك من الوجهة الفنية فى النظم والنثر.

فليس الغرض على رأينا من دراسة الشعر الجاعلى مثلاً أن نبين أنه خال من التكلف سهل العبارة، ليس به من التشبيهات والاستعارات ما فى شعر المولدين، وإن فلاناً الشاعر بكى واستبكى وذكر الديار. وإنما الغرض الذى يجب أن يكون ضالة الباحث هو الحالة العقلية لهؤلاء الناس، وعاداتهم الاجتماعية وتربيتهم النفسية، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومجموع معلوماتهم وعواطفهم وإحساساتهم، وغير ذلك مما هو لب البلاغة وغرضها. وهذا هو غرض من قال إن الأدب صورة الاجتماع.

لهذا لابد من العناية بالتاريخ عناية تامة لمن يريد أن يدرس البلاغة. وبدون هذه الطريقة لا يمكن التمييز بين شعر وشعر، ولا بين كتاب وكتاب، إلا ما يظهر جلياً من الاختلاف فى الأسلوب والديباجة، مما لا يخفى على من له أدنى ملاحظة. هذه الصلة - صلة التاريخ الاجتماعية بالأدب والبلاغة - من أهم الطرق التى يجب أن تتبع فى كشف مخبآت العقول، ومعرفة سير الحركة الفكرية لدى الأمم. مع هذا لابد من دراسة التاريخ الخاص بالكتاب. ونقصد من هنا أيضاً ما قصدناه هناك من التاريخ العقلى، أى تاريخ النفوس وحركات العقول، لمن يريد أن يتكلم على شاعر فى شعره أو ناثر فى نثره، وعلى صلة الكاتب بغيره من المؤثرات التى كونت عقله، وفكره من أشخاص عرفهم، ومن بيئات تربى فيها، ومن زمن عاش فيه ومر به.

وبعد فلابد من دراسة الأدب دراسة تاريخية أخرى. نريد بالدراسة التاريخية عدم العمل على مذهب أو رأى ثابت يجعله الإنسان قاعدة له قبل الدراسة ليقس عليه ما يعرف: كاعتبار أن بلاغة العرب مثلاً أرقى وأصح ما أنتجته العقول والأفكار، أو أنها ناقصة فى جملتها، قبل الاطلاع والدرس. مثل هذه المباحث المبنية على الأهواء الشخصية والمذاهب الثابتة هى خطأ فى مبدئها وفى نهايتها. ولا يمكن أن توصل إلى شىء من الحقيقة.

وليس الغرض من دراسة البلاغة دراسة تاريخية، البحث عن الحوادث التاريخية الصرفة، كالعناية بالتواريخ والأزمنة التى ولد وعاش فيها الكتاب، وسيرهم الخفية، أو سرد تاريخ البلاغة فى العصور المختلفة، بقصد إثباتها كما تذكر الحوادث التاريخية سواء بسواء. هذه طريقة تاريخية تظهر فى كتب الأدب مكملتها له ومتممة لموضوعاته العامة، كما يتخلل الأدب حوادث

تاريخية صرفة، بقصد كشف مخبآتة وتوضيح موضوعاته، على أنها ليست من الأدب ولا من البلاغة. ولا بد لمدرس البلاغة من الملاحظة الصحيحة والموازنة والمقارنة، تقريباً للإفهام وإيضاح للبلاغة نفسها. لأن هذا من دواعي ضبط آراء الباحث، وعدم اندفاعه في المدح أو الذم التابعين للأهواء والأغراض. وهذا أيضاً من علامات الحرية في الفكر ودقة البحث. فلا بد أن يكون الغرض من تدريس البلاغة البحث العلمى المبني على المعلومات الصحيحة، للوصول إلى الفهم الصحيح الخالى من التعصب القومى والميول المذهبية. فإن مدرس الأدب إن لم يكن كذلك كان كمن لديه نموذج جميل يريد أن يقيس عليه غيره ويجعله مثله. وليس الغرض من البحث والفهم المباحث اللفظية، أى ما يعطيه اللفظ من الدلائل والمعانى اللغوية لا غير، ولا الشرح والتأويل لجملة المانى. بل الغرض البحث عن كل ما تنطوى عليه العبارات، من صور النفوس والآراء وأسرار اللغة، مما يصح أن يعطى للإنسان صورة صحيحة من صور الحياة العقلية للأمم. ثم عن صلة ذلك بالأسباب التى دعت هذه العقول للخصوص فى هذه الموضوعات، وولدت هذا النوع من الفكر والخيال، ثم الوقوف على خواص اللغة وأثر الشعوب التى تميز أفكارها من سواها، وأثر الزمن والبيئة فى ذلك، والأنواع التى يكتب فيها الكتاب وقوانينها، وما فى ذلك من شخصياتهم لأن الكتابة تمت بألف سبب لما يحيط بها.

قال الموسيو موريس كروازيه فى مقدمة الجزء الأول من كتاب تاريخ الأدب اليونانى: "إن جملة الخطيب، أو بيت شعر لشاعر أشبه بمراة ينعكس فيها صورة منها تدل على ماضى اللغة والتاريخ لشعب من الشعوب. وتدل

على الفنى الذى وهبها هذا الشكل . كل هذا يرى فى الكتابات من شعر ونثر ولأجل التمكن من الوصول إلى ذلك ، لابد للباحث فى اللغة والأدب من أن يطلع على الفنون ، ويعرف الأخلاق والنظام الاجتماعى ، لترشيده إلى قوة الذكاء للأمم وأثر الحوادث فى ذلك . ولابد من الاعتماد على المخطوطات ، لأن الغرض الأولى من دراستها هو معرفة العقول التى يظهر آثارها فى المؤلفات الفنية بواسطة العبارات الأصلية وضروب البيان . ومؤرخ الأدب كالمؤرخ الطبعى ، أى المشتغل بدرس العلوم الطبيعية وجمعها ، فهو قبل كل شىء ذو ملاحظة خالية من الأهواء والأغراض . وليس معنى هذا أن مؤرخ الأدب ليس له حق الحكم ولا أن يكون له رأى يبدیه . ولكن الواجب عليه أن يكتفى بالمعرفة الصحيحة . . يقول سنت بوف . يلزم أن نكون كعلماء الطبيعة : نجمع مجموعات مختلفة تامة من العقول . ولكننا لا نتجنب الحكم عليها تجنباً كلياً . حتى نبتعد عن تذوقها . بل يكفى أن نمنع أذواقنا من القلق والملل ونوقفها عند حدها ، لا أن نغيتها موتاً . قال والنقد هو دراسة الأشخاص . أى دراسة الكتاب وقوة الإدراك لديهم ، كل على حسب طبيعته بقصد الحصول على صورة صحيحة من نفوسهم ، لنضعها فى المكان الذى تستحقه ، والمنزلة الفنية التى تليق بها . ولابد من العناية بالنصوص ، وموازنة بعضها ببعض ، ومعرفة الصحيح من الخطأ فيها " .

وهذا هو أساس ما يسمونه الآن طريقة علمية ، لأنها مبنية على نوع من التحقيق العلمى الذى لا يتطرق إليه الشك . ولكن ذلك من الصعوبة بمكان فى أدب العرب ، لأن الوقوف على " النسخة الأصلية " كما يقولون ، لا يكاد يتحقق فى كل المؤلفات ، ولا سيما مجموعات الشعر والنثر القديم ، غير أن

ذلك لا يمنع من العمل على ذلك بقدر الاستطاعة. على أن الظاهر لنا أن
معرفة المؤلفات الأصلية، ربما لا تتحقق في الأدب العربي.
